

خَلْقُ أُمَّ فَوْضَى: الْعِلْمُ الْحَدِيثُ وَوُجُودُ اللَّهِ
المحاضرة ٣: الصدقة: الأسطورة الحديثة

أ.ر. سي. سرول

أظنُّ أحيانًا أنَّها مهمَّةٌ هِرْفَلِيَّةٌ تَتَطَلَّبُ مَا لَا يَقِلُّ عَنِ سَيْفِ دِيمُوفَلِيْسٍ لِقَطْعِ سَاقِيَّ حَتَّى أَنْاسِبَ سَرِيرَ بُرُوكْرَسْتِ. مَاذَا قُلْتُ لِتَوَيِّ؟ اسْتَحْدَمْتُ لِتَوَيِّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَجَمَعْتُهَا مَعًا فِي جُمْلَةٍ، لِأُبَيِّنَ أَنَّ مَا زِلْنَا نَقْتَبِسُ صُورًا مِنَ الْأَسَاطِيرِ الْقَدِيمَةِ، الَّتِي لَا تَزَالُ تُؤَثِّرُ حَتَّى الْآنَ فِي أُسْلُوبِ حَدِيثِنَا. لَاحِظْتُ أَنَّهُ فِي الْمَدْرَسَةِ الْكِلَاسِيكِيَّةِ الَّتِي أَنْتَمِي إِلَيْهَا، لَا يَزَالُ الْأَوْلَادُ يَدْرُسُونَ الْأَسَاطِيرَ الْقَدِيمَةَ. هَذَا مُهِمٌّ لِأَنَّ مَوْضُوعَاتِ هَذِهِ الْأَسَاطِيرِ تَتَكَرَّرُ فِي أَدَبِ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَبْرَ الْعُصُورِ. لَكِنَّا الْيَوْمَ، وَقُرْبَ نَهَايَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ، نَمِيلُ إِلَى الْإِزْدِرَاءِ بِالْأَسَاطِيرِ. أَتَذَكَّرُ رُودُلْفَ بُولْتْمَانَ (Rudolf Bultmann)، أَحَدَ أَهَمِّ الْأَهْوَتِيَّيْنَ فِي الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ، الَّذِي قَالَ: "إِنَّ مُهِمَّةَ الْمَسِيحِيِّ الْعَصْرِيِّ هِيَ تَجْرِيدُ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ مِنَ الْأَسَاطِيرِ"، وَقَالَ إِنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ هُوَ فِي الْأَسَاسِ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَسَاطِيرِ يَتَخَلَّلُهَا تَارِيخٌ حَقِيقِيٌّ. وَكَيْ يَحْصَلَ الشَّخْصُ الْعَصْرِيُّ عَلَى أَجْوَبَةٍ مُهِمَّةٍ تَحْصُ الْعَالَمَ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ، لَا بُدَّ أَنْ يَخْتَرِقَ قَشْرَةَ الْأَسَاطِيرِ، لِيَصِلَ إِلَى نَوَاةِ الْحَقِيقَةِ الْكَامِنَةِ أَسْفَلَهَا. وَبِالْمُنَاسَبَةِ، وَمِنَ الْمَفَارِقَةِ، أَنَّهُ كَانَ مُقْتَبِعًا بِهَذَا الرَّأْيِ، لِأَنَّهُ كَانَ مُقْتَبِعًا بِأَنَّ عِلْمَ كُونِيَّاتِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، أَوْ مَنْظُورَهُ عَنِ الْكُونِ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَّفَقَ مَعَ عِلْمِ الْكُونِيَّاتِ الْحَدِيثِ، فِي حِينِ أَنَّ عِلْمَ الْكُونِيَّاتِ نَفْسَهُ الَّذِي تَبَنَّاهُ بُولْتْمَانَ أَصْبَحَ الْيَوْمَ عَتِيقَ الطَّرَازِ. هَذِهِ إِحْدَى مَفَارِقَاتِ التَّارِيخِ. لَكِنِ أَوْدُ الْقَوْلِ إِنَّهُ فِي كُلِّ عَصْرٍ، وَلَيْسَ فَقَطْ فِي الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، بَلْ فِي كُلِّ عَصْرٍ، هُنَاكَ بَرَاهِينُ عَلَى وَفَرَةٍ مِنَ الْأَسَاطِيرِ. وَالْأَسَاطِيرُ لَيْسَتْ كُلُّهَا بِهَذِهِ الْبِشَاعَةِ، لَكِنَّهَا تُمَثِّلُ قِيَمَةً، وَإِنْ كَانَتْ قِيَمَةً مُحْدَوْدَةً. حِينَ نَقْرَأُ مَثَلًا أُسَاطِيرَ الشُّعُوبِ الْقَدِيمَةِ، نَقْرَأُ كَثِيرًا عَنِ عِلْمِ الْإِنْسَانِ الْقَدِيمِ، أَيْ مُحَاوَلَةِ الْإِنْسَانِ تَفْسِيرَ بَيْتِهِ الْعَامِضَةِ. وَالشُّعُوبُ الْقَدِيمَةُ الَّتِي لَمْ تَفْهَمْ سَبَبَ حُدُوثِ بَعْضِ الْأُمُورِ، حَاوَلَتْ تَفْسِيرَهَا، أَيْ حَاوَلَتْ إِنْقَاذَ الظَّوَاهِرِ، فَاثْبَتَتْ بَعْضَ تِلْكَ الْأَسَاطِيرِ. لَكِنِ الْإِكْتِشَافَاتِ الْلَاِحِقَةَ بَدَّدَتْ الْمُحْتَوَى الْأُسْطُورِيَّ. وَنَمِيلُ الْيَوْمَ إِلَى الْإِسْتِهْزَاءِ بِهَا لِسَدَاجَتِهَا وَعَدَمِ تَطَوُّرِهَا. لَكِنِّي أَتَسَاءَلُ كَثِيرًا أَيْنَ تَخْتَبِئُ الْأَسَاطِيرُ فِي آرَائِنَا الْحَالِيَّةِ؟ وَمَمَّ سَيَسْخَرُ عُلَمَاءُ الْقُرْنَيْنِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ وَالثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِمَّا نَرَى أَنَّهُ صَحِيحُ الْيَوْمِ؟ دَعُونَا لَا نَكُونُ مُتَعَجِّرِينَ لِدَرَجَةِ افْتِرَاضِ أَنَّ أَوَّلَ جِيلٍ خَالَ مِنَ الْأَسَاطِيرِ.

يَقْدِرُ قِيَمَةُ الْأَسَاطِيرِ، وَلَا سِيَّامًا مِنْ حَيْثُ مَرَجَعِيَّتُهَا التَّارِيخِيَّةُ وَالْأَدَبِيَّةُ، تَكْمُنُ مُشْكَلَةُ الْأَسَاطِيرِ فِي كَوْنِهَا تَمِيلُ إِلَى حَجَبِ الْوَاقِعِ. وَنَحْنُ نُمَيِّزُ بَيْنَ الْأُسْطُورَةِ وَالْوَاقِعِ تَحْدِيدًا لِأَنَّ نَعْتَقِدُ أَنَّ الْأَسَاطِيرَ لَا تَصِفُ حَقِيقَةَ الْأُمُورِ. وَأَكْثَرُ أُسْطُورَةٍ صَارِحَةٍ زَحَفَتْ إِلَى الْحَيَاةِ الْحَدِيثَةِ، وَإِلَى فَلْسَفَتِنَا الْحَيَاتِيَّةِ، بَلْ وَاخْتَرَقَتْ الْبَعْضُ مِنْ أَفْضَلِ الْمُؤَسَّسَاتِ الْأَكَادِيمِيَّةِ وَمُؤَسَّسَاتِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، هِيَ أُسْطُورَةُ الْصُدْقَةِ.

أَعْتَقِدُ أَنَّ الصُّدْفَةَ هِيَ أَكْبَرُ أُسْطُورَةٍ فِي فِكْرِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ. فِي عَامِ ١٩١٣، عَالِمُ فَرَنْسِيٍّ يُدْعَى نِيْبِرْ دُلْبِي (Pierre Delbet)، فِي مُؤَلَّفٍ تُرْجِمَ لِلْإِنْجِلِيزِيَّةِ تَحْتَ عُنْوَانِ "الْعِلْمُ وَالْوَاقِعُ" (Science and Reality)، أَذَلَّى بِالتَّعْلِيْقِ الْآتِي: "تَبْدُو الصُّدْفَةُ الْيَوْمَ وَكَأَنَّهَا قَانُونٌ، الْقَانُونُ الْأَعْمُ عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَهِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ وَسَادَةٌ لَيْتَنِي، فَقَطِ الْجُهْلُ وَاللَّامْبَالَاةُ، حَسَبَ قَوْلِ مُونْتَايْنِي (Montaigne)، هُمَا مَا يُمَكِّنُهُمَا تَوْفِيرُهَا". لَكِنَّ هَذِهِ وَسَادَةٌ عِلْمِيَّةٌ. قَالَ دُلْبِي إِنَّ الصُّدْفَةَ قَانُونٌ، قَانُونٌ عِلْمِيٌّ، وَهِيَ وَسَادَةٌ لَيْتَنِي لِلْفِكْرِ الْحَدِيثِ. تُسْتَعْمَلُ الْوَسَادَاتُ عَادَةً لِلتَّوْمِ، وَلِلتَّوْمِ الْمُرِيحِ. يَحْضُرُنِي التَّعْبِيرُ الْقَدِيمُ "حَتَّى هُوْمِيرُوسُ يَغْفُو"، وَالْمَقْصُودُ أَنْ يَرْتَكِبَ شَخْصٌ عَظِيمٌ وَحَكِيمٌ فِي مَوْفِقٍ مَا خَطَأَ شَنِيعًا، وَكَأَنَّهُ عَفَا لِلْحِظَّةِ. وَنَقُولُ: "حِينَ يُحْطِئُ شَخْصٌ عَظِيمٌ، حَتَّى هُوْمِيرُوسُ نَفْسُهُ يَغْفُو". أَتَذَكَّرُ أَنَّهُ قَبْلَ كِتَابَةِ إِيْمَانِيُولِ كَانَطِ مُؤَلَّفِهِ الْجِدْرِيَّ عَنِ نَقْدِ الْمُنْطِقِ الْبَحْثِ، قَالَ إِنَّ مَا حَفَزَهُ عَلَى تَأْلِيْفِ هَذَا الْكِتَابِ هُوَ قِرَاءَةُ سُكُوكِ دِيْفِيدِ هِيُومِ (David Hume)، وَقَالَ إِنَّ دِيْفِيدِ هِيُومِ نَبَهُهُ أَوْ أَيْقَظَهُ مِنْ "سُبَاتِهِ الْعَقِيدِي".

حَسَنًا، أَنَا مُفْتَنِعٌ بِأَنَّ أُسْطُورَةَ الصُّدْفَةِ هِيَ "الْوَسَادَةُ اللَّيْتَنِيَّةُ" الَّتِي صَارَتْ مِثْلَ الْمَخَدَّرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ. فَقَدْ جَعَلَتْ الْعِبَاقِرَةَ فِي غَفْلَةٍ عَنِ التَّغْيِرَاتِ فِي الْعِلْمِ. سَتَانِلِي يَاكِي (Stanley Jaki)، عَالِمُ الْكُونِيَّاتِ الْكَاثُولِيكِي، عَلَّقَ عَلَى رَأْيِي دُلْبِي، وَقَالَ: "إِنَّ الصُّدْفَةَ أَصْبَحَتِ الْوَسَادَةُ الْأَكْثَرُ لِيُونَةَ فِي كُلِّ التَّارِيخِ الْعِلْمِيِّ. فَهِيَ بِمَثَابَةِ أَدَاةٍ سِحْرِيَّةٍ تَجْعَلُ التَّفَلُّسُفَ الرَّدِيءَ سُلُوكًا جَدِيرًا بِالْإِحْتِرَامِ". هَذَا نَقْدٌ قَاسٍ. فَهُوَ يَقُولُ إِنَّ مَفْهُومَ الصُّدْفَةِ لَيْسَ فَقَطَ بِمَثَابَةِ أُسْطُورَةٍ فِي عِلْمِ الْكُونِيَّاتِ الْحَدِيثِ، لَكِنَّهُ أَيْضًا كَالسِّحْرِ الَّذِي يُقَوِّضُ عِلْمَ الْعُلُومِ. وَمَا يُقْلِقُنِي، وَسَأَتَنَاوَلُ هَذَا بِالتَّفْصِيلِ، لَيْسَ فَقَطَ خَطَرَ إِثَارَةِ هَذَا الْمَفْهُومِ لِمَشْكَلاتِ فِي الْلَاهُوتِ، بَلْ قَلْبِي الْأَكْبَرُ هُوَ حِيَالٌ مَا قَدْ يَفْعَلُهُ بِالْعِلْمِ. وَأَقُولُ إِنَّ أَهَمَّ وَقْتٍ يَجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَاللَّاهُوتِيِّينَ أَنْ يَتَكَاتَفُوا مَعًا ضِدَّ عَدُوِّ مُشْتَرِكٍ لِلْحَقِّ وَلِلْوَاقِعِ هُوَ الْآنَ فِي وُقُوفِهِمْ ضِدَّ تَأْثِيرِ هَذَا الْمَفْهُومِ فِي عِلْمِ الْكُونِيَّاتِ الْحَدِيثِ.

أَذَلَّى آرْتَرُ كُوسْتِيَلَرُ (Arthur Koestler) بِالتَّعْلِيْقِ التَّالِي: "مَا دَامَتِ الصُّدْفَةُ تَحْكُمُ، فَقُلْ عَلَى اللَّهِ السَّلَامُ". دَعُونِي أَكْرِرُهُ: "مَا دَامَتِ الصُّدْفَةُ تَحْكُمُ، فَقُلْ عَلَى اللَّهِ السَّلَامُ". عَلَيَّ أَنْ أَلُومَ كُوسْتِيَلَرَ قَلِيلًا عَلَى هَذَا التَّعْلِيْقِ، لِأَنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّهُ كَانَ خَجُولًا قَلِيلًا. أَرَى أَنَّهُ تَصْرِيحٌ مُخَفَّفٌ، وَأَتَمَنَّى لَوْ كَانَ أَكْثَرَ جُرْأَةً. فَهُوَ يَقُولُ إِنَّهُ مَا دَامَتِ الصُّدْفَةُ تَحْكُمُ، فَقُلْ عَلَى اللَّهِ السَّلَامُ. أَظُنُّ أَنَّنَا نَفْهَمُ قَصْدَهُ. فَهُوَ يَقْصِدُ أَنْ فِكْرَةَ وُجُودِ الصُّدْفَةِ فِي كَوْنِ يَحْكُمُهُ إِلَهٌ لَهُ سُلْطَانٌ هُمَا فِكْرَتَانِ مُتَنَاقِضَتَانِ. فَإِنْ كَانَ لِلَّهِ سُلْطَانٌ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِلصُّدْفَةِ وُجُودٌ. وَإِذَا كَانَتِ الصُّدْفَةُ تَحْكُمُ فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ إِلَهٌ لَهُ سُلْطَانٌ. وَاسْمُ أَوْ كَلِمَةُ "اللَّهِ" تُصْبِحُ عَتِيْقَةَ الطَّرَازِ، وَلَا يَكُونُ لَهَا مَكَانٌ فِي الْمَفْرَدَاتِ الْحَدِيثِيَّةِ. لَكِنَّ إِلَيْكُمْ سَبَبَ اعْتِقَادِي أَنَّهُ كَانَ خَجُولًا. فَهُوَ يَقُولُ: "إِنْ كَانَتِ الصُّدْفَةُ تَحْكُمُ، فَقُلْ عَلَى اللَّهِ السَّلَامُ". لَيْسَ عَلَى الصُّدْفَةِ أَنْ تَحْكُمَ كَيْ يَنْتَهِي أَمْرُ اللَّهِ. فَكُلُّ مَا عَلَى الصُّدْفَةِ فَعَلُهُ لِجَعْلِ اللَّهِ عَدِيمَ الْأَهْمِيَّةِ، وَمَنْعِ التَّفَكِيرِ

الجَادَّ فِيهِ، هُوَ أَنْ تُوجَدَ. لَيْسَ عَلَيْهَا أَنْ تَحْكُمَ، أَوْ أَنْ تَكُونَ قَوِيَّةً جِدًّا. لَا يَتَطَلَّبُ الْأَمْرُ سِوَى الْقَلِيلِ مِنْهَا. كُلُّ مَا عَلَيْهَا فَعَلُهُ هُوَ أَنْ تُوجَدَ، فَلَا يُصْبِحُ اللَّهُ فَقَطَّ عَتِيقَ الطَّرَازِ، بَلْ يَنْتَهِي أَمْرُهُ.

لِمَ أَقُولُ ذَلِكَ؟ أَقُولُ إِنَّهُ بِوُجُودِ الصُّدْفَةِ، يَنْتَهِي أَمْرُ اللَّهِ. فَإِنْ وَجَدَ مَا يُسَمَّى بِالصُّدْفَةِ، لِتُصْبِحَ قَانُونًا عِلْمِيًّا، تَصِيرُ لَدَيْنَا هَوَّةٌ لَا يُمَكِّنُ عُبُورَهَا بَيْنَ الْعِلْمِ وَاللَّاهُوتِ. وَعَلَى أَحَدِهِمَا الْإِسْتِسْلَامُ. وَتَكْتَسِبُ فِكْرَةَ الصُّدْفَةِ أَهْمِيَّةً فِي الصِّرَاحِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ فِي عَقِيدَةِ الْخَلْقِ. أَظُنُّ أَنَّ جَمِيعًا عَلَى دِرَايَةِ بِنَقَارِيرِ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ عَنِ الْمَعَارِكِ الْمُسْتَمِرَّةِ الدَّائِرَةِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ بِشَأْنِ الْمَرَاجِعِ الَّتِي يَجِبُ اعْتِمَادُهَا فِي الْمَدَارِسِ الْحُكُومِيَّةِ، وَالْجَدَلِ بَيْنَ عِلْمِ الْخَلْقِ وَالْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَكُلِّ تِلْكَ الْأُمُورِ الَّتِي سَمِعْنَا عَنْهَا، وَالْجَدَلِ حَوْلَ مَا إِذَا كَانَ هَذَا الْعَالَمُ حَدِيثَ الْعَهْدِ، وَهَلْ عُمُرُ الْأَرْضِ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ، أَمْ عُمُرُ الْكَوْنِ مَا بَيْنَ ١٥-١٨ مِلْيَارَ سَنَةٍ؟ وَهَلْ خُلِقَ الْكَوْنُ فِي ٦ أَيَّامٍ مِنْ ٢٤ سَاعَةً؟ هَذِهِ هِيَ الْأَفْكَارُ مَحَلُّ النِّزَاعِ الشَّدِيدِ، وَبِكُلِّ صِرَاحَةٍ لَنْ يَسْعَى تَنَاوُلُهَا فِي هَذِهِ السِّلْسِلَةِ. لَكِنَّ أُرِيدُ أَنْ نَرَى أَنَّ الْمُسْتَهْدَفَ الرَّئِيسِيَّ فِي هَذَا الْجَدَلِ هُوَ فِكْرَةُ الْخَلْقِ. فَأَوَّلُ تَصْرِيحٍ جَاءَ فِي الصَّفْحَةِ الْأُولَى مِنَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ هُوَ: "فِي الْبَدءِ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ". قَدْ نَتَجَادَلُ لِعُقُودِ حَوْلَ كَيْفِيَّةِ حُدُوثِ الْخَلْقِ، وَمَتَى حَدَثَ، إِلَى آخِرِهِ. لَكِنَّ السُّؤَالَ الْأَهَمَّ عَلَى الْإِظْلَاقِ هُوَ إِنْ كَانَ قَدْ حَدَثَ أَمْ لَا مِنْ الْأَسَاسِ. هَلْ هُنَاكَ مَا يُسَمَّى بِالْخَلْقِ؟ لِأَنَّ كُلَّ مُلْحِدٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ اسْتَطَعَتْ تَكْذِيبَ هَذَا الْمَفْهُومِ، فَقَدْ انْتَهَى أَمْرُ الْمَسِيحِيَّةِ. وَانْتَهَى أَمْرُ الْيَهُودِيَّةِ. وَانْتَهَى أَمْرُ الْإِسْلَامِ. فَالِدَيَانَاتُ الْعُظْمَى الثَّلَاثُ فِي الْعَالَمِ الْيَوْمَ تَتَفَقُّ مَعًا عَلَى الْأَقْلَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ ذَا السُّلْطَانِ هُوَ الْخَالِقُ. مَخْتَلِفٌ فِي الرَّأْيِ حَوْلَ طَبِيعَةِ اللَّهِ، وَمَقَاصِدِ اللَّهِ، إِلَى آخِرِهِ، لَكِنَّا نَتَفَقُّ فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ أَنَّهُ يُوجَدُ إِلَهُ هُوَ الْعِلَّةُ الْكَافِيَّةُ وَالْفَعَالَةُ لِلْكَوْنِ بِأَكْمَلِهِ. وَتَلْعَبُ الصُّدْفَةُ دَوْرَ الْأُسْطُورَةِ كَبَدِيلٍ لِلْخَلْقِ. فَهِيَ الْمَفْهُومُ الَّذِي يُحْتَكَمُ إِلَيْهِ بِلَا هَوَادَةٍ لِإِنْقَادِ ظَوَاهِرِ الْكَوْنِ دُونَ الْإِحْتِكَامِ إِلَى اللَّاهُوتِ. وَلِهَذَا يُرْحَبُ الْبَعْضُ بِدُخُولِ الصُّدْفَةِ إِلَى عَالَمِ الْفِكْرِ الْعِلْمِيِّ.

سَمِعْتُ عِظَةً مِنْهُ سَنَوَاتٍ كَانَ الْمُتَحَدِّثُ يُحَاوِلُ فِيهَا الدِّفَاعَ عَنِ مِصْدَاقِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ ضِدَّ مَنْ يَقُولُونَ إِنَّ الْكَوْنَ خُلِقَ بِالصُّدْفَةِ. وَكَانَ قَدْ قَرَأَ فِي مَرَجِحٍ مَا الْإِحْتِمَالَاتِ الَّتِي تَسْتَبْعِدُ بَدءَ الْكَوْنِ بِالصُّدْفَةِ، وَقَرَأَ عَلَيْنَا الْأَرْقَامَ. لَا أَذْكَرُ الْأَرْقَامَ، لِأَنَّهَا كَانَتْ ضَخْمَةً. ثُمَّ قَالَ إِنَّ هُنَاكَ احْتِمَالًا بِنِسْبَةِ وَاحِدٍ عَلَى مِلْيَارَاتِ الْمِلْيَارَاتِ أَنْ يَكُونَ الْكَوْنَ جَاءَ بِالصُّدْفَةِ. ثُمَّ تَابَعَ قَائِلًا إِنَّهُ مِنَ السَّخَافَةِ افْتِرَاضُ أَنَّ هَذَا الْإِحْتِمَالَ الضَّئِيلَ يَدْحَضُ فِكْرَةَ الْخَلْقِ. كَانَ يُحَاوِلُ تَهْدِئَةَ مُسْتَمِعِيهِ. وَوَصَلَ إِلَى الْخِتَامِ فَقَالَ: "إِذَنْ، نَرَى أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ حِسَابِيًّا أَنْ يَكُونَ الْكَوْنَ قَدْ جَاءَ بِالصُّدْفَةِ". وَبَيْنَمَا هَمَمْتُ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْكَنِيسَةِ، اسْتَوْقَفَنِي الْوَاعِظُ وَسَأَلَنِي بِشَيْءٍ مِنَ الْحَمَاسِ: "مَا رَأَيْتُكَ؟" لَمْ أَعْرِفْ مَاذَا أَقُولُ، أَرَدْتُ الْقَوْلَ: "عِظَةٌ جَمِيلَةٌ" ثُمَّ أَخْرَجْتُ. فَلَمْ أَشَأْ الْخَوْضَ مَعَهُ فِي جِدَالٍ. لَكِنِّي قُلْتُ: "أَظُنُّ أَنَّ حُجَّتَكَ لَمْ تَكُنْ مُوَفَّقَةً". سَأَلَنِي: "مَاذَا تَقْصِدُ؟" قُلْتُ: "لَدَيَّ ثَلَاثَةٌ مَا خِذْ". "أَوَّلًا، إِنْ كَانَ هُنَاكَ احْتِمَالٌ وَاحِدٌ مِنْ مِلْيَارَاتِ الْمِلْيَارَاتِ لِمَجِيءِ الْكَوْنِ

بِالْصُّدْفَةِ، وَإِذَا كَانَ الْإِطَارُ الزَّمْنِي لِحُدُوثِ ذَلِكَ غَيْرَ مُحْدُودٍ وَأَبَدِيٍّ، فَيَبْدُو لِي أَنَّ هَذَا الْإِحْتِمَالَ الْوَاحِدَ سَيَتَحَقَّقُ إِنْ أَجَلًا أَوْ عَاجِلًا فِي الْأَبَدِ. لَيْسَ صَحِيحًا أَنَّهُ يُوجَدُ احْتِمَالٌ ضَعِيفٌ. وَقُلْتُ: "الْمُشْكَلَةُ الثَّانِيَةُ بَسِيطَةٌ جِدًّا. ذَكَرْتُ أَنَّ ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ حِسَابِيًّا، فِي حِينٍ قَدَمْتُ لِتَوَكُّاحْتِمَالًا حِسَابِيًّا وَاحِدًا. وَبِقَدْرِ كَوْنِهِ بَعِيدًا جِدًّا، بِنِسْبَةِ وَاحِدٍ عَلَى عَشْرَاتِ الْأَصْفَارِ، لَكِنَّهُ يَظَلُّ مُمَكِّنًا حِسَابِيًّا. هَلْ تُوَافِقُنِي؟" أَجَابَ: "نَعَمْ". فَقُلْتُ: "سُؤَالِي الثَّلَاثُ هُوَ الْأَهَمُّ. مَا احْتِمَالَاتُ حُدُوثِ أَيِّ شَيْءٍ بِالْصُّدْفَةِ؟" أَجَابَ: "لَا أَفَهُمُ قَصْدَكَ". قُلْتُ: "الْجَوَابُ هُوَ وَلَا احْتِمَالٌ". وَقُلْتُ: "لَا شَيْءٌ يُمَكِّنُ أَنْ يَحْدُثَ بِالْصُّدْفَةِ". فَسَأَلَ: "لِمَ لَا؟" أَجَبْتُ: "لِأَنَّ الصُّدْفَةَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا".

فِي نِقَاشِ لِي دَاتِ مَرَّةٍ مَعَ أُسْتَاذِي فِي هَارْفَارْدِ، قَالَ لِي: "الْكُونُ خُلِقَ بِالْصُّدْفَةِ". صَعَطْتُ عَلَيْهِ قَلِيلًا. وَاسْتَحْدَمْتُ عُمَلَةً مَعْدِنِيَّةً لِتَوْضِيحِ فِكْرِي. وَقُلْتُ: "إِذَا كَانَتْ لَدَيَّ عُمَلَةٌ مَعْدِنِيَّةٌ وَقَدَفْتُهَا فِي الْهَوَاءِ، فَمَا احْتِمَالَاتُ سُفُوطِهَا عَلَى وَجْهِ التَّفْقِيسِ؟ أَجَابَ: "خَمْسُونَ بِالْمِئَةِ". فَقُلْتُ: "حَسَنًا، مَا مَدَى تَأْثِيرِ الصُّدْفَةِ عَلَى حَرَكَةِ الْعُمَلَةِ؟" سَأَلَنِي: "مَاذَا تَقْصِدُ؟" أَجَبْتُ: "حَسَنًا، إِنَّ سُفُوطَهَا عَلَى وَجْهِ التَّفْقِيسِ أَوْ الْكِتَابَةِ يَتَحَدَّدُ بِمَدَى الضَّغْطِ الَّذِي يُمَارَسُ عَلَيْهَا، وَكَثَافَةِ الْعِلَافِ الْجَوِّيِّ، وَعَدَدِ مَرَّاتِ دَوْرَانِهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَيْنَ سَتَلْتَقِطُهَا، وَهَلْ سَتَقْبَلُهَا بَعْدَ التَّقَاطُفِ أَمْ لَا. هَذِهِ هِيَ كُلُّ الْمُتَغَيَّرَاتِ. فَمَا مَدَى تَأْثِيرِ الصُّدْفَةِ؟" ظَلَّ مُتَحَيِّرًا. فَقُلْتُ: "حَسَنًا، إِنْ اسْتَحْدَمْتُ اللَّفْظَ 'صُّدْفَةٌ' بِمَعْنَى احْتِمَالَاتِ حِسَابِيَّةٍ، فَسَيَكُونُ مَقْبُولًا تَمَامًا". وَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ فِي مُحَاضَرَتِنَا الْمُقْبِلَةِ، حَوْلَ مَتَى يَكُونُ اللَّفْظُ 'صُّدْفَةٌ' كَلِمَةً دَاتِ مَعْنَى. "لَكِنْ حِينَ تَنْسِبُ إِلَى 'الصُّدْفَةِ' الْقُدْرَةَ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مَا، فَإِنَّا نَقُولُ إِنَّ الصُّدْفَةَ شَيْءٌ. وَمَا هَذَا الشَّيْءُ؟ مَا هَذَا الْعَامِلُ الْعَامِضُ الَّذِي يَجْعَلُ الْعُمَلَةَ تَسْقُطُ عَلَى تَفْقِيسٍ أَوْ كِتَابَةٍ؟" ظَلَّ يَنْظُرُ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: "مَهَلًا". قُلْتُ: "لَا يُمَكِّنُ لِلْصُّدْفَةِ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا لِأَنَّ الصُّدْفَةَ لَيْسَتْ شَيْئًا. فَكَيْ يَفْعَلَ شَيْءٌ أَمْرًا مَا، يَجِبُ أَوَّلًا، مَاذَا؟ أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا. وَالصُّدْفَةُ لَيْسَتْ شَيْئًا. فَهِيَ لَا شَيْءٌ. وَحِينَ تُخْبِرُنِي بِأَنَّ الْكُونُ خُلِقَ بِالْصُّدْفَةِ، فَهَذَا وَكَأَنَّكَ تَقُولُ إِنَّ الْكُونُ خُلِقَ بِلَا شَيْءٍ. فَقَدْ أَخَذْتَ كَلِمَةً نَافِعَةً لَوْصِفِ احْتِمَالَاتِ حِسَابِيَّةٍ، وَوَهَبْتَهَا قُوَّةَ سِحْرِيَّةٍ، وَمَنْحَتَهَا وُجُودًا، وَأَعْطَيْتَهَا الْقُدْرَةَ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مَا فِي حِينٍ أَنَّهُ لَا شَيْءٌ". هَذَا مَا قَصَدَهُ يَاقِي بِقَوْلِهِ إِنَّ "وَسَادَةَ الصُّدْفَةِ اللَّيِّنَةِ هِيَ الْأَكْثَرُ لِيُونَةُ فِي كُلِّ التَّارِيخِ. وَقَدْ صَارَتْ أَدَاةَ سِحْرِيَّةٍ لِيَجْعَلَ الْفَلَسَفَةَ الرَّدِيئَةَ جَدِيدَةً بِالْإِحْتِرَامِ". يُعْجِبُنِي اخْتِيَارُهُ لِلْكَلِمَاتِ، حَيْثُ تَكَلَّمَ عَنْ "أَدَاةَ سِحْرِيَّةٍ". أَحَدُ الْمَبَادِي الْأَسَاسِيَّةِ فِي الْعِلْمِ وَالْفَلَسَفَةِ هُوَ مَبْدَأُ "إِيكْسُ نِيهِيلُو نِيهِيلُ فَيْت" (*ex nihilo nihil fit*)؛ أَي "لَا شَيْءٌ يَأْتِي مِنَ الْعَدَمِ". هَذَا يَعْنِي بِبَسَاطَةٍ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَأْتِيَ شَيْءٌ مِنْ لَا شَيْءٍ. أَقُولُ لِلطَّلَابِ فِي صَفِّ اللَّاهُوتِ إِنَّهُ إِنْ كَانَ هُنَاكَ وَقْتُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَمَاذَا كَانَ لِيُوجَدَ الْآنَ؟ لَا شَيْءٌ. فَإِذَا كَانَ صَحِيحًا أَنْ لَا شَيْءٌ يَأْتِي مِنَ الْعَدَمِ، فَالْوَسَادَةُ اللَّيِّنَةُ هِيَ: "كُلُّ شَيْءٍ يَأْتِي مِنَ الصُّدْفَةِ"، وَمَعْنَاهَا: "مِنَ الْعَدَمِ يَأْتِي شَيْءٌ". كُلُّ شَيْءٍ يَأْتِي مِنَ الْعَدَمِ".

وَهَذِهِ هِيَ الْفِكْرَةُ الرَّئِيسِيَّةُ الَّتِي تُسْتَخْدَمُ كَبَدِيلٍ لِلخَلْقِ. أَعْلَمُ أَنَّ الْبَعْضَ يَقُولُونَ إِنَّ الْكُونَ أَرْبِي، وَإِنَّهُ لَطَالَمَا كَانَ مَوْجُودًا. هَذِهِ قَضِيَّةٌ أُخْرَى. لَكِنَّ الْعَالِيَّةَ الْعُظْمَى مِنَ التَّقَادِيمِ الْيَوْمِ الَّذِينَ يَرْفُضُونَ كُونَ إِلَهٍ سَرْمَدِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ خَلَقَ هَذَا الْعَالَمَ يُشِيرُونَ إِلَى وُجُودِ بَدَايَةِ الْوَقَاعِ بِأَكْمَلِهِ، جَاءَتْ مَنْ لَا شَيْءَ. يُشْبِهُ ذَلِكَ إِخْرَاجَ أَرْنَبٍ مِنْ قُبْعَةٍ دُونَ قُبْعَةٍ، وَدُونَ أَرْنَبٍ، وَدُونَ سَاحِرٍ. هَذَا أَسْوَأُ مِنَ السِّحْرِ. هَذِهِ أُسْطُورَةٌ بَحْتَةٌ. وَإِنْ لَمْ تُؤْخَذْ هَذِهِ الْأُسْطُورَةُ عَلَى مَحْمَلِ الْجِدِّ الْيَوْمِ. رَبِّمَا تُثِيرُ سُخْرِيَّتَنَا. لَكِنَّ مَا هُوَ عَلَى الْمِحْكِ مُجَدِّدًا لَيْسَ الْلاهُوتَ فَحَسْبُ بَلِ الْعِلْمُ نَفْسُهُ. وَأَرْجُو أَنْ نَرَى ذَلِكَ فِي مُحَاضَرَتِنَا الْمُقْبِلَةِ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيرِ، وَكَانَ أَحَدَ رِعَاةِ كَنِيسَةِ الْفِدَيْسِ أُنْدَرْو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِإِصْلَاحِ (Reformation Bible College). وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُنَّا لَاهُوتِيُونَ" و"أَدَهَسَنِي الْأَلَمُ".